مسيرة التغيير

فلسطين ولبنان والعراق

الدكتور عبد الستار قاسم

يلاحظ المتتبع للسلوك الشعبي العربي أن الشعوب تملك الرغبة والاستعداد لمقاومة الأجنبي بينما تملك الخنوع أمام الحكام العرب. تلوذ الجماهير العربية بالصمت أو إلى المواقف السلبية حيال السياسات الداخلية للأنظمة على الرغم من الشعور الواسع بعدم الرضا. كتابنا يكتبون منتقدين الأنظمة، وتعلو أصوات عبر وسائل الإعلام حول ما أوصلتنا إليه هذه الأنظمة من تدهور، لكن ثورة لم تحصل، ولم تخرج الناس إلى الشارع تعبر عن نفسها بروح التحدي والإصرار على التغيير. لكن هؤلاء الناس الخانعين أمام الحكام سرعان ما يتحركون في مواجهة القوى الخارجية.
في لبنان مثلا، طال عهد التربع على ثروات لبنان ومقدراته من قبل قلة قليلة من المتنفذين عائليا واقتصاديا، ولم تكن القوى المسحوقة قادرة على تنظيم نفسها لانتزاع حقوقها. لكن هذا الفئات نهضت مع الغزو الصهيوني لجنوب لبنان وأصرت على القتال حتى طردت الغزاة. والآن يعتبر حزب الله الذي قاد المقاومة أحد أركان الأمل العربي في التغيير نحو استقلال عربي حقيقي، وتقدم في مختلف المجالات وبالأخص في مواجهة العدو الصهيوني.
في فلسطين، وقف الشعب الفلسطيني يقاتل الغزو الصهيوني منذ عام 1917، وما زال يقاتل حتى الآن وسيستمر في قتاله، لكنه لم يستطع مواجهة قلة من الفاسدين الذين نهبوا أموال الناس وتصرفوا بمقدراتهم بطريقة بغيضة. أغلب الناس في فلسطين يعرفون مدى الظلم الذي ألحقته السلطة بهم لكنهم لم يخرجوا إلى الشارع متمردين.
في العراق، أقام صدام حسين المشانق ولاحق المعارضين واستبد بالرأي والمال، لكن أقصى ما فعله المعارضون كان الهروب من العراق في لجوء سياسي إلى الدول الأجنبية. لكن هذا الشعب الذي صمت طويلا ولم يدافع عن نفسه ضد سياسات داخلية ظالمة لم يعط الأمريكيين شهرا واحدا لأخذ النفس والاسترخاء بعد احتلال بغداد. هب عدد كبير من الشعب العراقي ممتشقا السلاح في حرب ضد الأمريكيين.
هذه ثلاث حالات عربية متشابهة، وتعكس سلوكا عربيا متشابها إلى حد كبير. ÷ذا ناهيك عن نموذج صومالي يحمل بعض السمات. إنه أمر يستحق الدراسة والتحليل والبحث العلمي. هذا هو السلوك الذي دعاني إلى الكتابة عبر صفحات **جريدة الخليج** مباشرة بعد احتلال بغداد حول خيارات أمريكا الصعبة في العراق. كان لدي بعض الوعي بالسلوك الجماهيري العربي وحسبت أن أمريكا قد وقعت في ورطة، وأنها قدمت بشكل أو بآخر معروفا للعرب. لماذا تتصرف الشعوب العربية بهذه الطريقة؟ وهل نحن العرب بحاجة إلى احتلال من أجل أن نتحرك نحو تغيير الأوضاع؟
هذا علما أن الخسائر البشرية التي تقع في صفوف المقاومين للاحتلال ليست قليلة. أناس يُستشهدون، وآخرون يعتقلون، وغيرهم يودعون السجن أو تهدم بيوتهم أو تخرب معاملهم ومزارعهم، الخ. الأنظمة العربية قمعية ولا تهادن من يعارضها، وبعض هذه الأنظمة يقتل ويعذب ويسجن ويحرم من الوظيفة، الخ، لكنها تمتنع، إلا ما ندر، عن القيام بأعمال يقوم بها العدو الخارجي مثل هدم البيوت وتخريب الممتلكات. (لو) تمت مقارنة إحصائية بين الأعمال القمعية

للقوى الخارجية وتلك للأنظمة العربية لوجدنا، حسب تخميني، أن درجة المعاناة الناجمة عن سياسات القوى الخارجية أشد من تلك الناجمة عن القوى الداخلية.
فهل عنصر الخوف كاف حقيقة لتفسير رد الفعل الشعبي المتباطئ حيال السياسات الداخلية؟ إذا كان عنصرا رئيسا فإنه من المفروض أن يكون رادعا للمقاومة ضد الأجنبي الذي يستعمل أسلحة فتاكة ويحصد النفوس بالجملة. هناك أمثلة كثيرة على المجازر التي ارتكبتها القوى الأجنبية ضد شعبنا العربي في لبنان وفلسطين والعراق. أنظر مثلا كيف صمد مخيم جنين في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية، وكيف صمدت الفلوجة. يعرف الناس والمقاتلون أن ثمن المواجهة باهظ جدا لكنهم يقبلون على الموت.
تفسير هذا السلوك ليس سهلا ويحتاج إلى جهود، إنما يكفينا الآن أننا نعرفه، ليس بالضرورة بتفاصيله إنما بكليته. أي أن ما فعلته أمريكا، وعلى الرغم من حزننا الشديد على ما جرى للشعب العراقي، عبارة عن مساهمة تاريخية لتسريع التغيير في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي. توفرت بعض بؤر النضال العربي والإسلامي ضد القوى الأجنبية، وأتت أمريكا بسياساتها البقرية لتزيد هذه البؤر ولتوسع دائرة المقاومين العرب والمسلمين. وربما ستؤدي السياسة الأمريكية إلى صنع بؤرة جديدة في باكستان لتلتقي مع غير الراضين في أفغانستان. وفي النهاية كل البؤر الفاعلة ستلتقي في مواجهة التحدي الأمريكي الذي نذر نفسه لإخضاع المنطقة العربية الإسلامية وتسييرها وفق المصالح الأمريكية.
بهذا المنطق، لا قيمة حقيقية من الناحية التاريخية لكل العرب والمسلمين الذين لديهم الاستعداد للتعاطي مع السياسة الأمريكية. في لبنان مثلا، فشل الخط المدعوم أمريكيا وإسرائيليا ووجد نفسه معزولا ولم يستطع إدارة الدولة. أما في فلسطين، عجزت السلطة عن المضي في مشروعها السلمي مع إسرائيل وبقي وجودها عالة على وسائل الإعلام. وفي العراق، لن يحصد مجلس الحكم سوى الخيبة وغالبا سيجد أعضاؤه أنفسهم مضطرين للرحيل عن العراق من جديد.
أمريكا تطرح الإصلاح من أجل تثبيت دعائم مصالحها في المنطقة. وظني أن هذه المنطقة لم تعد صالحة للإصلاح لأن الفساد الذي استشرى فيها أكبر بكثير من أن يصلح. لكن أعمال أمريكا تصب في المجرى التاريخي للتغيير. إنها تقدم الأسباب القوية والوقائع المتحدية التي تدفع العربي لامتشاق السلاح والثورة وإحداث التغيير بالقوة. أي أن الحصاد الذي ينتظر أمريكا ليس ذلك الذي ترغب به من خلال الإصلاح الديمقراطي الذي تطرحه.
أمريكا تقتل وتهدم وتسبب الآلام والأحزان. هذا واقع مرير يحز في نفوس العرب والمسلمين وكل المدافعين عن حق الإنسان وحريته، لكن المسألة في النهاية تأخذ بعدا تاريخيا يؤثر في مسيرة أمة تبحث عن التغيير. أمريكا، بشكل أو بآخر، تقدم لنا بعض ما هو ضروري للإصرار على التغيير.